مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (6)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (6) 2016

علاقة الوعي والحاضر العربي بالتراث

الدكتور برهان مهلوبي [*]
رؤى محمود [**]

(تاريخ الإيداع 16 / 10 / 2016. قبل للنشر في 12 / 12 / 2016)

□ ملخّص □

يشكل الوعي عاملاً من أهم العوامل لدراسة التراث ، ذلك لإيجاد الصيغة المثلى لجوانيه الشاملة للمستويات العلمية والفلسفية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، أي على المستويين الأيديولوجي والمعرفي (الفلسفي) لما لهذين المستويين من دور كبير في تحديد النقطة المركزية المعتمدة في تحديد مسيرة موضوع التراث الذي يشكل أهم مشكلات العصر الراهن .

الكلمات المفتاحية : الوعي ، التراث ، أيديولوجيا ، فلسفية ، عصر .

[*] **أستاذ مساعد ، قسم الفلسفة ، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ، جامعة تشرين ، اللاذقيّة ، سورية .**
[**] **طالبة دراسات عليا (ماجستير) ، قسم الفلسفة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة تشرين ، اللاذقية ،سورية .**

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (6)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (6) 2016

Relationship of awareness and the Arab Present with Heritage

Dr. BurhanAlmhlobi*
Roua Mahmoud**

(Received 16 / 10 / 2016. Accepted 12 / 12 / 2016)

□ ABSTRACT □

Awareness in one of the most important factors for the study of heritage, so as to find the optimal formula of its comprehensive aspects of scientific, philosophical, social, political and economic levels, i.e. the ideological and cognitive levels (philosophical). These two levels have a large role in determining the central point adopted in determining the development of theme of heritage, which forms the most important problems of the current era.

Keywords: awareness, heritage, ideology, philosophy, era.

* **Assistant Professor, Department of Philosophy, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**
****Postgraduate student , Department of Philosophy, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدمة :

تتمثل أزمة التراث في الفكر العربي الإسلامي المعاصر، بثنائية المصدر أي في فكرنا المعاصر بكل اتجاهاته والتراث.

ونعني بالتراث، التراث الفلسفي القديم، فالمشكلة إذاً تكمن بين الفلسفة الآتية من المغرب الحديث ، والتراث الذي يأتي من تاريخنا القديم. تفصح هذه المشكلة عن ذاتها مباشرة لأنها صراع بين الأنا والآخر، والآخر هو الفلسفة الغربية أما الأنا هو التاريخ القديم لتظهر أنها بين الأصالة والمعاصرة. والمشكلة لا تبدو هنا بأنها صراع بين الأنا والآخر فقط بل إنها صراع بين الأنا المزدوج أيضاً، نزاع بين تيارات فكرية عدة تعكس وعياً في اتجاه وآخر.

التراث الحامل لتناقضات الماضي والحاضر وخصوصاً الواقع الطبقي الاجتماعي الذي أنتج في الماضي الاختلاف الفكري الذي يعد امتداداً للتناقض الإسلامي الوسيط والذي عبرت عنه التيارات المادية والمثالية وما زال مستمراً حتى الآن.

فالطبقة الإقطاعية التي انبثق منها التيار الرجعي المثالي، حملت معها هذه الرجعية إلى وقتنا الراهن. ومن هنا يمكن القول أن التاريخي والتراثي المحكومين بالقطيعة النسبية، مشروطين بالحدث الاجتماعي وقابعين فيه.

على نحو أو آخر مازال مستمراً حتى الآن عبر التناقض المعاصر بين القوى الرجعية والقوى الثورية فالبرجوازية حاولت تفسير التراث تفسيراً مثالياً رجعياً بينما اتجهت القوى الثورية إلى الجانب التقدمي المادي العقلاني، وكان من دعاة النزعة الثورية المفكر العربي حسين مروة وهو (موضوع بحثنا). حيث انطلق مشروع مروة لإعادة إنتاج التراث هل باستناداً إلى القوى الثورية، بوصفها الأساس الاجتماعي لإنتاج التراث الفكري، هذه القوى هي المنتج التي تمثل الأساس التاريخي للأسس المادية التي انعكست في أشكال الوعي الاجتماعي حسب حسين مروة، هل الاستناد إلى منهج مادي جديد يتجاوز المواقف المثالية والميتافيزيقية هذا المنهج هو المنهج المادي التاريخي هل يمكن اعتباره وحده القادر على كشف العلاقة الواقعية الموضوعية بين القوانين الداخلية لعملية الإنجاز الفكري وبين القوانين العامة لحركة الواقع الاجتماعي؟ هذا السؤال سنحاول من خلاله كشف المشكلات التراثية في حركتيها التاريخية؟، كما سنحاول أيضاً التركيز على نقطة لعلها أساسية في مشروعنا وهي محاولة الكشف عما يحتويه التراث الفلسفي من قيم تقدمية أو نزعات مادية، لأن المنهج المادي، عند مروة هو دراسة الفلسفة العربية الإسلامية بوصفها نتاج عملية اجتماعية تاريخية داخل حركة الفكر العربي بارتباطه مع تطور المجتمع العربي الإسلامي في القرون الوسطى (ابن سينا).

إن موقف حسين مروة المنهجي التراثي بمثابته سياقاً تراثياً هو عملية تقوم ضد الإقطاعية أو البرجوازية لأنها تمثل حالة رجعية، ولكن أليست هذه الطبقة بوصفها طبقة اجتماعية (رجعية) منجزة بشروطها التاريخية، بوصفها حالة يعبر عنها التطور الكلي الشامل للحدث الاجتماعي. هل بالإمكان من منظور حسين مروة، تجاوز هذا الشرط التاريخي الناجز في حينه بحوامله الاجتماعية وأدواته المعرفية ؟ ألا تعد القوى الثورية الممثلة للأساس المادي التاريخي هي ذاتها أنتجت بوصفها شرطاً تاريخياً من حوامله وأدواته المعرفية أيضاً؟هذه الأسئلة وغيرها سيحاول بحثنا الإجابة عنه.

أهمية البحث و أهدافه:

تبرز أهمية البحث كونه الذي يربط التراث بفكر وثقافة مجتمع معين وبأيديولوجية المجتمع المتغيرة حسب الظروف المتطورة لهذا المجتمع، وبالتالي وجب على المفكر دراسة المادة المعرفية الجديدة للتراث والتي من الممكن أن

تعط التراث صيغة جديدة وصيغة جديدة تختلف عن الصيغة القديمة بعدة نقاط. ذلك لأن التراث مرتبط بالثورة التحررية سواء أكانت هذه الثورة، ثورة تحررية من تقاليد معروفة أو مفاهيم تقليدية متوارثة وتجاوزها إلى مفاهيم جديدة تتناسب مع الأيديولوجيا الجديدة ومع الظروف الجديدة ومع تطور الفكر والمعرفة والمجتمع الجديد.

يهدف البحث إلى تبيان أهمية استخدام المنهج المادي التاريخي لدراسة مفهوم التراث ولكن عدم اعتباره المنهج الوحيد القادر على دراسة هذا المفهوم القابل للتغير وفقاً لارتباطه بالإيديولوجية ولدراسة هذا التغير في التراث لا بد من اتباع مناهج جديدة ومتعددة تتناسب أو تكون متناسبة مع كل تبدل في الفكر في كل أيديولوجيا جديدة، لأن التراث لا يعتمد فقط على الماضي أي على دراسة واحدة تجمع شرائط هذا المجتمع وتعالج مشكلة التراث الفكري انطلاقاً من كونها مشكلة الفكر الماضي. بل هي محاولة لا بد أن تكون منهجية وعلمية للكشف عن العلاقة بين الفكر ف 6ي هذه البنية الاجتماعية العربية الحاضرة والفكر السابق عليه في العربية في المرحلة الحاضرة من ثورتها التحررية.

المنهج المستخدم في البحث:

سوف أعتمد في هذا البحث على المنهج النقدي التحليلي في تناول مفهوم التراث في فكر مروة.

اولاً- علاقة الوعي بالتراث:

يعد الوعي عاملا من أهم العوامل التي تستند عليها دراسة التراث وتدقيقه ، للوصول إلى صيغة متلى تشمل جوانب التراث كاملة بمستوياتها العلمية والمعرفية و الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، أي بالمستويين الايديولوجي والمعرفي _ الفلسفي ، حيث يلعب هذين المستويين دورا كبيرا في تحديد مسيرة التراث وعمليته ، للوصول إلى المحور الأساسي الذي نعتمده في دراستنا لموضوع التراث الذي يشكل أهم مشكلات العصر الراهن .

حيث شكل الوعي الحلقة المفقودة في الصراع الذي دار بين السلطات النافذة والقوى الاجتماعية المختلفة ، ونتيجة لفقدانه اشتد الصراع ، ووجب اتباع طريقة علمية منهجية لحل هذه المشكلة وفض الصراع لصالح الجميع ، باعتماد اسلوب التبصر و التدقيق العلمي الموضوعي في قضية التراث ، ومن ثم تقويمه واستيعابه بما ينسجم وروح العصر الذي وجد فيه .ليبرز الوعي كعامل مهم من عوامل تحقيق التراث العربي _ الاسلامي ،وفض الصراع بين السلطات والقوى المتصارعة .

ولتقديم الحل المناسب لمشكلة العلاقة بين مسألة التراث وتحقيقه ، وجب تقديم حل علمي لهذه المشكلة وغيرها من المشاكل التي واجهت تاريخ الفكر العربي _ الاسلامي ، عن طريق الاجابة على السؤال الذي طرح نفسه بشدة في خضم اشتداد الصراع ، وضياع الحقيقة في المجتمع العربي _ الاسلامي ، ألا وهو :

هل التراث يخص حاضرنا العربي أم ماضيه ؟ .

وللإجابة على هذا السؤال الهام جدا ، يجب توافر قراءة منهجية علمية لهذه المشكلة ، عن طريق فهم المحتوى الثوري لكل حركة وكل فئة في حاضرها ، وكذلك فهم حقيقة الترابط الجوهري بين ثورة كل فئة من الفئات على الأوضاع التي سادت في فترة زمنية محددة، ليمثل الوعي العامل الأهم في الإجابة على السؤال المطروح سابقا ، فما حقيقة التراث ، من أين ينبع ، ومن صنعه وساهم في تشكيله وايجاد صيغه الحالية والقديمة .

اذا أخذنا حركات التحرر الوطنية مثالا ، ضمن الأوضاع التي قامت بعد الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الراهن ، لوجدنا أن المنحى الذي اتبعته هو منحى ثوري بجوهره ، تتمثل ثوريته من تصاعد الوعي التحرري الوطني والاجتماعي لدى الجماهير الوطنية والشعبية العربية ، حيث تجلى الوعي بعدة جوانب .

أولها : بسبب تعمق العداء للاستعمار والامبريالية وللقوى التابعة لها والمشاركة في عملية سلب الحقوق الوطنية للشعوب ، واستلاب الأرض والخيرات ، وتمثل الصهيونية العالمية في فلسطين أكبر دليل على ذلك .

وثانيها : العداء للنظام الاجتماعي وللمنظمات الداعمة لهذا الكيان الصهيوني المتواجد في أرض ليست أرضه ، مما أدى لاضطهاد الشعب الذي احتلت أرضه وسلبت حقوقه كاملة ، فاستيقظ الوعي ، وتوهجت المشاعر لدى الجماهير الكادحة ، لاستعادة حقوقها وموقعها الفاعل في تكوين التراث الذي حاولت القوى الاستعمارية ، والامبريالية طمسه.

وثالث العوامل تمثل في تحول الوعي إلى وعي لنضال الاجتماعي ، لترتفع بذلك الممارسات الكفاحية النضالية، وظهور نمو ووعي سياسي واجتماعي (وطني) لاستعادة الحقوق المسلوبة.

أما رابعا : فقد بدأ الوعي يحدث تغييرات جذرية ملحوظة في السمات الداخلية لحركات التحرر الوطنية ، وبدأت تتكشف ملامح علاقة جديدة بين طرفين موجودين في المجتمع هما : طرف القوى القيادية الموجودة في المجتمع ، ومن يواليها . وطرف الجماهير الكادحة والبرجوازية الصغيرة ، التي سعت لإثبات وجودها في خضم الزحف الهائل لقوى الاستعمار والامبريالية للسيطرة على المنطقة العربية بالكامل ، فتنبهت لضرورة فهم العلاقة في التلاحم والتلازم بين النضال الوطني والنضال الاجتماعي ، لتأكيد المحتوى الثوري الذي أحد بالتزايد يوما بعد يوم لتحرر من قوى الهيمنة .

وخامس تجليات الوعي تظهر في بروز قوى وفئات جديدة داخل حركة التحرر الوطنية العربية ، نشأت على أصول انعزالية ، ومحاولة هذه القوى الجديدة التخلص من مفاهيمها وأصولها السابقة ، والانفتاح على المنهج العلمي للحركة الثورية ، باتباع الأسلوب المنهجي العلمي لحل المشاكل التي تواجهها .

سادس التجليات للوعي تتمثل بوعي هذه الحركات التحررية الوطنية، للترابط الصميمي بينها وبين حركات التحرر العربية في العالم ككل، لسعيها نحو اثبات وجودها على الأرض، والتخلص من سيطرة القوى المعادية لأهدافها.

ووعي القوى البرجوازية لنجاح القوى الثورية في مسعاها ، دفع بها إلى النضال لإثبات وجودها وترسيخ مبادئها ، لضمان بقاءها واستمرارها ، فعملت جاهدة على محاربة هذه القوى التحررية ، لإثبات أنها قوى ضعيفة ، لا يمكنها قيادة المجتمع العربي _ الاسلامي إلى التطور والازدهار ، من دون مساعدة هذه القوى البرجوازية .

لنلاحظ هنا بروز عظمة الأنا ، لأن كل فئة تحاول ابراز نفسها بأنها الفئة الوحيدة القادرة على ادارة شؤون المجتمع ، والسير به نحو التقدم ، ضاربة عرض الحائط بميزات الفئة الأخرى التي من الممكن أن تساعدها في استلام دفة القيادة للوصول إلى التقدم . ويتوجب علينا هنا كما قال حسبن مروه في كتابه النزعات ((تحديد الاتجاه العام بما يحمله من آفاق التطور المستقبلي الحاسم ، أي التطور الثوري الواعي ، دون التطور العفوي))[1]

فمن الواجب علينا كباحثين أن ننتبه إلى اللحظات الحاسمة والمهمة في تاريخ الشعوب والأمم بشكل عام ، والوطن العربي والأمة العربية بشكل خاص . حيث أدت إلى بروز عنصر الوعي بالظروف التي أحاطت بها ، فتبلورت تساؤلات كثيرة حول هوية هذه الشعوب ، وتاريخها ، ومكوناتها ، وعناصرها وجذورها الحضارية ، وتقاليدها الوطنية. في الماضي والحاضر وكذلك في المستقبل ، وعن سلبيات وايجابيات العلاقات العربية الداخلية والخارجية . وعجز هذه الدول من الناحية العسكرية والسياسية والاقتصادية ، والعلاقات الاجتماعية ، بسبب التجزئة والتفرق ، واغفال أهمية الوحدة والتنسيق لإبراز أهمية الفاعلية العربية ، ودور الشخصية العربية القوي والفعال في المواقف

[1] **-مروه ،حسي (1985)،النزعات المادية ،ج1،بيروت:دار الفارابي ،ص17.**

المصيرية والمحبطة التي تحيط بالأمة العربية في الوقت الراهن وتمنع تقدمها ، لاستعادت مكانتها التي سلبت منها ، وغابت عن ساحتها لمدة طويلة من الزمن .

حان الوقت للوطن العربي أن يستيقظ من ثباته ، ويعي الصدمة الحضارية التي أصيب بها ، منذ بداية القرن التاسع عشر ، عندما واجه الاستعمار الأوروبي (الانكليزي والفرنسي) ، ليس من الناحية العسكرية فقط باحتلاله جغرافيا ، وانما بمحاولة هذا الغرب تجريد الوطن العربي من حضارته ومكوناته ومقوماته الحضارية ، حين أحرق الكتب ودمر القلاع والحصون والمدن . وحاول احلال مقوماته مكان المنظومة الحضارية العربية لمنعها من التقدم والنهوض من جديد .

يجب على الوطن العربي أن يدرك حالة الانهيار التي مني بها ، وحالة الانبهار العربي بالنموذج الأوروبي لدرجة مرضية ، وانتشار فكرة اللحاق بالغرب كونه الوحيد الذي يحقق التقدم . وهذا ما عبر عنه النفيسي بقوله : ((تعالت الأصوات في المجتمع الاسلامي أنه لا سبيل إلى اللحاق بركب الحضارة والمعاصرة الا بالانسلاخ الكامل عن مورثاتنا كلها وتقمص الشخصية الأوروبية))[1]

حيث عاش الوطن العربي نتيجة الصدمة الحضارية حركة مزدوجة ، لنجد

1 : من يدعو للتغريب ، أي اللحاق بركب الغرب بكل ما يملكه هذا الغرب ، ونسف كل القيم والتقاليد العربية ، أو التي تميز الوطن العربي والبلدان العربية عن غيرها ، وتطبيعها بطابعها الخاص المميز . ليغدو الغرب هو المعيار والميزان للتقدم والتطور ، متناسين بذلك حضارة العرب وما قدموه من علم ومعرفة ، حتى استيقظ هذا الغرب الذي يدعي التقدم والحضارة من سباته ، الذي مني به لقرون عديدة . ناكرا بعد استيقاظه فضل العرب في ذلك .

وبعد ذلك عندما حاولت البلدان العربية ، في وقت لاحق حل مشاكلها العالقة . لم تجد بديلا عربيا ، فلجأت للنموذج الماركسي لتحقيق العدالة الاجتماعية وتحقيق التحرر من البلدان الاستعمارية . ولم تكتف بذلك بل لجأت إلى الليبرالية ، لحل قضايا القمع السياسي، التي واجهت العرب عندما حاولوا التحرر من الغرب الاستعماري ، واعتمدوا اسلوب الثورة على العدو الغاشم ، لإخراجه من الأرض العربية، ليغدو الثوب الذي يلبسه العرب مرقعا ليس أصيل ، تشوبه منظومات غريبة عنه لا تمسه ولا تقربه بصلة أبدا . وبات مقياس الاختبار بالنظر إلى الذات والتاريخ والتراث العربي بعين غريبة متناسين مقاييسنا وأدواتنا الاختبارية العربية الأصيلة ، لتحل محل العين العربية عين غربية . تنظر إلى الأشياء العربية نظرة غربية بالرغم من البعد الكبير في النهج والثقافة بينهما .وكل ذلك سيؤدي إلى ضياع الذات العربية .

2: وآخر يدعو إلى الاعتزاز بالماضي ، الاعتزاز بالتراث الذي قدمه الآباء والأجداد ، وابراز دورهم الحضاري التاريخي ، واسهاماتهم في مجال الحضارة والثقافة والعلوم ، دون محاولتهم احياء هذا الدور والاسهامات التي قدموها ، لتبرز محاولتهم وكأنها محاولة للخروج من حالة الشعور بالذل والانكسار النفسي الذي أوقع العرب أنفسهم به من خلال الصدمة الحضارية.

وعندما نتأمل الموقفين السابقين لا نلاحظ أي فرق بينهما ، فأولئك الذين يدعون للحاق بالغرب ، يدعون للتخلي عن الذات العربية . وهؤلاء الذين يدعون لتمجيد الآباء والأجداد دون احياء دورهم واسهاماتهم ، يقتصرون على الافتخار بالماضي والاعتزاز به دون احيائه .

[1]- **المصدر السابق نفسه.**

((وقد لا يجد الانسان التأمل كبير فارق بين دعاة المعاصرة هؤلاء الذين لا يرون سبيلها بالتخلي عن الذات المترافق مع الشعور باستحالة اللحاق بالعصر الذي يشل بالإمكانية ويعطل الفاعلية فيدعون إلى تقليد الغرب في كل شيء ، وبين التراثيين ، أولئك الذين يقتصرون على الفخر بالماضي والاعتزاز بحجة أن الأولين لم يتركوا شيئا كبديل عن الاسهامات المعاصرة من حيث النتيجة والممارسة العملية وأن اختلف المنطلق . انهم يقفون على أرض واحدة ويتنفسون هواء مناخ واحد وهو مناخ الواقع المتخلف))[1]

ومن هذا المنطلق يجب على العرب أن يعوا تمام الوعي ، ويثقوا تمام الثقة ، أن الحضارة الغربية العصرية ليست منفصلة عن عالم الاسلام ، وانما بنيت قواعدها على المنهج التجريبي الاسلامي الذي قدمه جابر بن حيان وأخذه بيكون وطوره وطبقه في الغرب . فنحن اليوم عندما نتصل بهذه الحضارة ، فنحن لسنا غريبين عنها ولا عن جذورها لأنها بناء وضع أساسه العلماء المسلمين ، وشاركت البشرية جمعاء في صياغتها ووضع أسسها ، وبناء جوانبها . حيث يجب على العرب وعي حقيقة مهمة وهي ضرورة هضم التراث واستيعابه للحاق بركب الحضارة الذي تخلف عنه العرب والمسلمين كثيرا ، فتراث كل أمة ليس سوى مجموعة تجاربها ومعطياتها ومكونات حياتها الشاملة وعوامل التأثير بهذه الحياة .

وحالة الوطن العربي ، ان جاز لنا التشبيه _ شبيهة بحالة الانسان التعب المريض ، الذي اذا أراد الشفاء من مرضه وجب عليه الذهاب إلى الطبيب ، ليقوم الطبيب بتشخيص مرضه ، ووصف الدواء المناسب له ، وذلك ليس ممكنا الا من خلال العودة إلى بداية الحالة ، أي العودة إلى الماضي وفحص الظروف التي ساهمت في نشوء العلة والمرض ، اذ تمثل العودة إلى الماضي خطوة مهمة جدا لتشخيص الحالة ووصف الدواء المناسب لنتوصل بذلك إلى ضرورة الالتزام العلمي الواعي الموضوعي بالتراث بات ضرورة وخطوة أساسية لفهم حاضرنا ومستقبلنا . حيث يجب على الوطن العربي الاحساس بالتخلف ووعي مخاطره وآثاره ، وتوظيف هذا الاحساس والوعي في مكانه الصحيح .

هنا يجب أن نعي المقياس القيمي الذي نحتكم اليه في تحليلنا لأزمة الفقر والتخلف ، ونبحث عن عنصر المقارنة بين الغرب المتقدم والبلدان العربية التي تعاني الفقر والتخلف . والبحث عن جواب لسؤال جوهري وأساسي شغل عقول الباحثين العرب ، ألا وهو :

كل هذه الأسئلة نطرحها ، لكي نبين أن الخروج من أزمة التخلف لا تتمثل باتباع الغرب ، ولا بالعودة إلى الماضي دون احيائه ، وانما من خلال وعي خطورة وضع الوطن العربي والأمة العربية من جراء التبعية للغرب ، ووعيهم لأهمية تمتعهم بالإرادة القوية التي تساعدهم بالخروج من حالة التخلف واتباع سبيل التقدم والتطور ، مهما كان ثمن ذلك ، فلا وجود لإرادة مجانية ، ولاوجود لإرادة الا في سبيل تحمل مسؤولية الخيار الذي يتبع لتحقيق الأهداف المرجوة من كل حركة يقوم بها العرب لاستعادة مكانتهم التي سلبت منهم من جراء سباتهم الطويل الذي أبعدهم عن ركب الحضارة السائر ، فقد حان الوقت ليدرك العرب أهمية الخيار والارادة للخروج من محنة التخلف والوصول إلى الوحدة ، للتصدي لكل غاشم سلب الحقوق والارادات والأرض ، وجعل الشعب العربي بلا حول ولا قوة .

يجب التمتع بالموضوعية العلمية ، واتباع المنهج العلمي ، لنتمكن من التمييز بين الأصيل والدخيل ، والتفريق بين ما هو صالح وما هو غير صالح للتراث. وبعد ذلك ترك المجال لكل فاعل قادر على تأدية مهمته بتجريد ، ويضمن تحقيق الذات البشرية والكرامة العربية ، ويمنع الاستغلال والظلم ، ويردع البؤس الانساني ، ويحقق العدالة لكل فئات المجتمع ، عن طريق المشاركة الشعبية بكافة المجالات ، واقرار النظام عن طريق أسلوب العدل ، والتحرر من

[1] -المصدر السابق،ص23.

التبعية للغرب الاستعماري الذي ما زال الوطن العربي يعاني من آثارها حتى الوقت الراهن، بسبب انبهاره الشديد بمنجزات الغرب الحضارية ، وما حققه من تطور على كافة الأصعدة وفي كافة المجالات ، حيث تمثلت هذه التبعية في أنماط المعيشة وأنماط الانتاج ، واحلال قيم غريبة جديدة مكان قيم عربية ، حتى اللباس لم ينج من آثار هذه التبعية، وهذا ما أدى إلى انفصال وانسلاخ المثقفين والعاملين في التراث عن ماضيهم . وهذا ما يؤكده المؤرخ البريطاني أرنولد توبيني بقوله : ((لكن هذه البلاد (العربية) التي استقلت سياسيا ما زالت غير متحررة تماما من الوجهة الثقافية فهي لاتزال متأثرة بالأفكار والمثل العليا الغربية وهي في بعض الحالات لاتزال تأخذ بهذه الأفكار والمثل العليا دون التمييز ودون أي انتقاد لها))[1]

فالانبهار بالغرب أدى بالمثقفين العرب إلى اتباع هذا الغرب ، واعتقادهم بأنه لا وجود لحضارة ولا تقدم الا باتباع هذا الغرب وتقليده بكافة المجالات وعلى كافة الأصعدة ، مما أدى إلى الابتعاد عن تراثنا وماضينا الذي يثبت أننا من قدم الحضارة للغرب ثم سلبها منا ، وحرمنا بعد ذلك حتى من شرف القول أن الحضارة صنع عربي .

حيث أن الانبهار بالغرب وبالحضارة الأوربية التي قدمها ، أدى إلى انفصال المثقفين العرب عن تراثهم العربي الاسلامي ، وهذه مسألة في غاية الخطورة من الناحية الثقافية لأنها سلبت العرب حريتهم ، وسهلت الخضوع للهيمنة الغربية ، وساعدت على نسيان العرب لتراثهم ومنجزاتهم الحضارية ، واعتبروا أن المعيار الوحيد للتقدم هو اللحاق بالنموذج الغربي و تقليده .

حان الوقت ليدرك العرب حقيقة كونهم المنارة التي أنارت الطريق نحو دروب الفكر والعلم والحضارة ، وبأنهم من قدموا لهذا الغرب المتطور المنجزات الثقافية التي فتحت لهم طريق وسبيل النور ليستفيقوا من سباتهم العميق ، لتنار أمامهم دروب العلم والتقدم . فالحضارة والتراث ليستا فقط ما هو موجود في المكتبات والمخازن والمساجد ، وليس فقط الكم الهائل من المخطوطات القديمة ، سواء المنشورة وغير المنشورة ، وليستا دراسة لماض قديم ولى وطواه النسيان ، ولا يرى الا في المتاحف ولا ينقب عنه الا علماء الآثار . بل هما جزء من نسيج الواقع ومكوناته ، وما زال ماثلا بأفكاره ومثله وتصوراته موجها لسلوك الجماهير في حياتها اليومية ، وما زال بنصوصه فاعلا في حياة الناس وسلوكهم.

((التراث حي يفعل في الناس ويوجه سلوكهم ، وبالتالي يكون تجديد التراث ... هو اطلاق لطاقات مختزنة عند الجماهير ... وحل لطلاسم القديم وللعقد الموروثة وقضاء على معوقات التطور .... والا ظل القديم شبحا ماثلا أمام الأعين يمثل أرواح الأسلاف التي تبعث من جديد ، تتربص بالأبناء شرا اذ هم خرجوا من جبتهم ورفضوا سلطانهم ولم يدينوا لهم بالطاعة والولاء))[2]

فلنحافظ على التراث ونوظفه بما يخدم مصالح العرب ويحقق لهم التطور والتقدم ، وليخطوا سطور الحضارة واثبات أثر الذات العربية في مسيرة الحضارة ، وهذا ما يمكننا أن نطلق عليه حقيقة الترابط الجوهري بين قدرة العرب على الثورة لتحقيق النهضة ، والقدرة على اللحاق بركب الحضارة السائر في الزمن الحاضر ، وبين مسألة الموقف من التراث _ الموقف الثوري _ من التراث الفكري العربي _ الاسلامي ، الذي شكل بذور الحضارة فيما مضى ، وقدمها لقمة سائغة للبشرية جمعاء عامة ، وللغرب خاصة . وما نتج عن ذلك من اتباع الغرب لخطوات الحضارة العربية

[1]-جلال ،شوقي(د.ت) ،التراث التاريخي،د.م،ص163.

[2]- تيزيني،طيب(1978)،من التراث إلى الثورة ،ج1،بيروت :دار ابن خلدون ،ط2،ص6.

وتمثلهم بها ، ومن ثم تطويرها بما يناسب تقدمه وتطوره ، عن طريق اخضاع الحضارة العربية لمعايير ومقاييس تناسب الغرب بعاداته وتقاليده وأعرافه ، وتحقق منافعه الخاصة .

حيث ان ادراك العرب لحقيقة الترابط السابق ، على أن يكون ترابطا موضوعيا وواقعي وموضوعي ، يثبت حاجة العرب إلى تقديم الأفضل لتحقيق التقدم عن طريق اتباع اسلوب الثورة على الأوضاع الموجودة سواء في الماضي أو الحاضر ، أي الثورة على قضايا الماضي وكذلك على قضايا الحاضر ، لأن الثورة موقف كلي شمولي لا يتجزأ .

وثورية الموقف من قضايا الحاضر ، تتوجب الانطلاق من معرفة التراث معرفة ثورية ، للبحث عن الصيغة المثلى له ، لهذا يجب البحث في أصغر التفاصيل ألا وهي الأسسالمادية التي ساهمت في تكوين هذا التراث ، للوصول إلى أدق التفاصيل ألا وهي القوى والفئات الاجتماعية التي بتضافر جهودها توصلنا إلى الصيغة الحالية للتراث،لكن بعد النظر بتجرد محض لدور كل قوة من هذه القوى ، وكل فئة من هذه الفئات المساهمة في التراث .

ولتفادي الوقوع في حفرة النظرة الايديولوجية للتراث ، وجب علينا أن نلحظ الفارق بين التراث نفسه الذي نتحدث عنه والذي يتكون من قبل عدة قوى وفئات اجتماعية ، وبين معرفة هذا التراث وتفنيده لمعرفة الصحيح من الخاطئ فيه . لنلحظ أننا هنا أمام مسألتين مختلفتين لأن التراث مختلف تماما عن معرفة هذا التراث ، لأن التراث واحد لا يتغير ، أما الذي يتغير هو معرفتنا له نتيجة تعدد المصادر المعرفية التي توصلنا إلى التراث .

((التراث هو نفسه ، لا يتكرر ولا يتعدد .... لكن معرفته هي المتعددة بقدر ما تتعدد البنى الفكرية التي بها يقرأ التراث .....))[1]

وبناء على قول مروه السابق الذكر ، تغدو معرفتنا للتراث وكأنها كيفية ، أي كأنها تأتي من الكيفية الواقعية التاريخية ، التي تكونت عناصر التراث في بيئتها الاجتماعية وفقا لفعل القوانين التي تنظم حركة صيرورتها وتغيراتها ، وذلك بفعل عملية التأريخ . أي تدوين المعلومات الخاصة بهذا التراث ومعرفته المتعددة والمتنوعة ، التي تبرز وكأنها اضافة خارجية من مصادر معرفية متعددة ومتنوعة . وهذا الاختلاف بالمصادر المعرفية وبطبيعة المعلومات التي يقدمها دارسوا التراث والباحثون فيه ، أدى إلى اختلاف في معرفة التراث بالرغم من أن التراث واحد لا يتغير .

لذلك يجب أن نعي العودة بالفكر إلى ارثنا المعرفي الثقافي العربي ، محاولين الكشف عن أفضل الكنوز التي تميزه ، والتي نعلم أن كثيرا منها قدتم طمسه عن عمد وقصد في أغلب الأوقات ، كما أنه تم طمسها عن جهل وسذاجة في أوقات أخرى . الا أن عنصر القصد في اخفاء هذه الكنوز في مراحل متعددة من هذا التاريخ كان هو السائد ، وكان تعبيرا عن أفكار جديدة ، تحل مكان أفكار قديمة سواء في الحياة العقلية أو الاجتماعية أو السياسية وغيرها ، التي تنبعث من حركة التطور ، والتي تصارع الأفكار القديمة المحافظة المتعصبة والمحاربة لكل جديد ، والمعبرة عن مصالح الفئات الحاكمة في المجتمع المالكة لزمام الأمور ، ووسائل الانتاج ، ليتم طمس ودفن كل جديد يحقق لهذه الفئات التحرر من سيطرة القوى الحاكمة . بالرغم من أن هذا الجديد النامي الذي تم طمسه ومحاربته ودفنه في غياهب الظلمات لعدم تحقيقه لمصالح فئة اجتماعية معينة ، كان ليخرج حياة الناس إلى النور ويشق لهم طريق الظهور ، وكان ليعبر عن أفضل الكنوز الانسانية لأنه أقرب إلى تعبير الحياة نفسها التي يحياها البشر ، ويحوي

[1]- مروه،حسين (1985)،النزعات المادية ،ج1،بيروت:دار الفارابي ،ص24.

أصدق الأدلة على ما يكمن في قلب الحياة والمجتمع من طاقات الحركة المؤدية للتطور و النمو والتجدد ، ويحمل في طياته عنصر الخلود ، الذي يمثل العنصر الفكري للانعكاس الصحيح الصافي لقانون التطور والتجدد .والذي سيمثل المنارة المضيئة التي تضيء دروب العلم والمعرفة أمام الشعوب التي سلبت مكانتها لتعود من جديد ، مرفوعة الرأس عالية الجبين ، محققة النصر من جديد ، وتجلس في مكانها الصحيح الملائم لما قدمته .

حيث أن كل ما وصل الينا من نتاج الفكر العربي _ الاسلامي ، وكل ما يقع في أيدي المثقفين ببساطة وسهولة ، ما هو الا جزء ضئيل من التراث الضخم الذي أنتجه الفكر العربي في مختلف العصور التي مر بها ، مساهما في تكوين المعلومات والأفكار المتنوعة التي ستبقى شاهدا قويا على وجوده ، صحيح أن هذا القدر من التراث الفكري ليس ذا حظ عظيم من الانتشار الا أنه يتمتع بجوانب باهرة تكشف البداهة أن وراءها خصبا قويا في التربة الفكرية ، وطاقة هائلة للإبداع، وأصالة عريقة قابلة للامتداد والشمول والتعميق . كما تكشف عن دور وحركة التاريخ في دفعها نحو الانتاج دون توقف ، بالرغم من كل ما واجه هذا الفكر من ظلم واضطهاد ومحاولة لمنعه من التقدم والظهور ، ظلت طاقات الفكر العربي تعبر عن نفسها وتبرز نفسها في ساحة النضال والمقاومة لكل أساليب الظلم ، لتبقى المنارة المضيئة التي تضيء الطريق أمام الأجيال القادمة لاستعادة مكانها الصحيح الذي ضاع منها نتيجة هفوات مني بها الوطن العربي والبلاد العربية .

حيث أن الصورة التاريخية ذات القيمة العظيمة للفكر العربي التي تصل الينا بالرغم مما واجهه من فعل التتار والمغول ، هي صورة مشرفة وعظيمة ، يجب احياؤها من جديد بما يناسب العصر ويحقق التقدم ، لأن المحنة التي يمر بها العرب اليوم ليست أفظع من المحنة التي مر بها الفكر العربي ، فلم تكن محنة منحصرة في مكابدة الظلم والاضطهاد والارهاب الفكري ، أو في المعاناة من الحرق والاغراق والاتلاف من قبل الغزاة البرابرة، تتارا كانوا أم مغول ، أم أتراكا ، أم صليبيين . وكذلك الحرية التي سلبت منه في عهد الخلفاء والتي شكلت بالنسبة له عائقا أكبر من الاضطهاد الفكري والظلم .

وبالرغم من كل ذلك حافظ هذا الفكر على مكانته وعلى ما قدمه مفكريه وفلاسفته الذين تألقت أسماءهم ، وبرزت أعمالهم بالرغم من كل ما واجهه هؤلاء الفلاسفة من ظلم وقمع واخفاء للآثار الفكرية التي قدموها للفكر .

آن الأوان للذات العربية لتعي مكانتها التي غابت عنها لفترة طويلة من الزمن ، هذه المكانة التي لا تليق ولا تصح لغيرها ، فهي التي كونت الحضارة وكانت الحلقة الأولى التي من خلالها برزت أولى معالم الحضارة الانسانية، ثم انطلقت بعد ذلك بنشرها في أرجاء البلاد الأخرى ، ثم بدأت الحضارة بالتطور والنمو .

فالحضارة ظاهرة انسانية عميقة الجذور في علاقة الانسان بالحياة ، منذ بدء العلاقة بالحياة ، حيث كانت دوما في مكان الصدارة ، وذات حضور قوي فوجود الأمم والشعوب . فالحضارة هي انعكاس طبيعي لمختلف مظاهر الحياة النفسية والاجتماعية التي يحياها الناس بمختلف العصور والأزمان ، حيث تشكلت الحضارة منذ بدأ الانسان يحرك لسانه بالكلام معبرا عن مشاعره وعواطفه وحاجاته ، ومنذ أخذ يفسر ظاهرات الكون والطبيعة التي تطورت واقتربت شيئا فشيئا إلى الوضوح ، فارتقى بذلك سلم التطور الاجتماعي جيلا بعد جيل .

التراث تراث انساني لا يخص قوم دون آخر ، ولا يقتصر وجوده على شعب دون آخر .

((لهذا نرفض كل رأي يقول لنا اليوم أن هناك حضارة ما أقامها شعب على هذه الأرض من صنع يديه وحده ولم يشاركه في بنائها يد أو عدة أيد من تراث حضارة سابقة أو معاصرة))[1]

[1]-المصدر السابق،ص39.

هذا يعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى جديد ، مستوى تتظافر فيه كل الجهود ، نحو دراسة شاملة ، تضم كل ما تم تقديمه من قبل الجميع، للوصول إلى تراث أصلي وجوهري ، معبر عن حضارة كل الشعوب والأمم لأن التراث ملك للبشرية جمعاء . فمن التراث ما هو قديم ومنه ما هو معاصر ، وفي الفكر الذي وصلنا من هذا التراث ، هناك ما هو مادي ومنه ما هو مثالي . الا أن الحقيقة الكامنة وراء كل السطور التي تكتب عن التراث ، وتخط مسيرته وحكايته ، هي أن الماضي لا يصاغ باستقلالية عن الحاضر ، ولا باعتباره مستقلا عن المستقبل. وانما هو بحق صياغة لما يعبر عن حاجات الشعوب وما يخدم تقدمها وتطورها ، فلا يجب التعصب لما يأتي من الماضي ، أو الحاضر ، وانما يجب التوصل إلى صيغة مثلى تساعدنا على استعادة مكانتنا التي سلبت منا ، لنعود إلى مكاننا الصحيح . مكان الصدارة في مسار الحضارة الذي تشكل بدايته أكبر دليل على دور العرب الفاعل والكبير في تكوين الحضارة ، وصياغة التراث

ثانياً – العلاقة بين الحاضر العربي والتراث.

لتفسير أي ظاهرة تراثية ينبغي دراستها من ناحيتين :

1: الناحية الأولى علاقتها بالحاضر ومكانتها وتواجدها فيه .

2: والناحية الثانية علاقتها بالماضي ، والتركيز على مدى قدرتها على التفاعل والتواصل بين الجانبين (الماضي والحاضر)، حيث يتحد كلا منهما ليشكلا جذور أية جماعة انسانية ، وأية فكرة ، ويفسران بالتالي سلوكيات هذه الجماعة في شتى الاتجاهات ، ويلقيان مزيدا من الضوء على منظومة اهتماماتها ومنظومتها الثقافية ، وعلاقاتها الانسانية الداخلية بين أفرادها من جهة ، وعلاقاتها الخارجية مع الآخرين من جهة أخرى ، مضافا إلى كل ذلك مدى انفتاحها وانغلاقها ، تشددها وتساهلها في قبول الآخر ، أو رفضه وتمسكها بمبادئها . لتصب كل هذه الأساسيات في بوتقة تحديد شخصيتها الانسانية ، الاجتماعية ، السياسية والثقافية ، وتحدد شكل هويتها وقدرتها على الحفاظ عليها .

فاذا كان في اعتقاد مروه أن معرفة التراث سواء صدرت عن مؤرخ أو باحث تعود لموقف ايديولوجي طبقي . ((ان كل (معرفة) عن هذا التراث ذاته صدرت من مؤرخ أو مفسر أو دارس ، قديما وحديثا ، انما يكمن وراءها موقف ايديولوجي . والموقف الايديولوجي هو _ بالأساس _ موقف طبقي))[1]. [1]

ليعتبره شرطا أساسيا في دراسة التراث ، أو في امكانية معرفته ودراسته ، سواء كان موقفا ظاهرا أم مستترا في القاعدة الفكرية التي تتبناه . ليصبح بالنسبة لمروه قانونا عاما تخضع له جميع المعارف . يقول في ذلك :

((ليس شرطا أن يكون لهذا الموقف خضورا مباشر في كل حالة خاصة وانما له حضوره المستتر في القاعدة الفكرية التي ينطلق منها الشكل المعين لمعرفة التراث . هذا _ بالطبع _ ليس أمرا يختص بالتراث العربي _ الاسلامي ، بل هو قانون ، أو بحكم القانون العام ، ينطبق هنا كما ينطبق على كل نظر في كل تراث البشرية في مختلف عصورها الحضارية))[2]. [2]

لكن ثمة مبررات تدفع أية جماعة انسانية للتنقيب عن تراثها والكشف عن كنوز ابداعاته . واعادة اضاءة فضاءات تاريخها التي حجبتها غيوم المسافات الزمنية بين الحاضر والماضي . اضافة إلى تراكمات شجون الحياة المعاصرة وأشجانها . فلا يشكل العامل الايديولوجي أو الموقف الطبقي العامل الأساس في ذلك البحث والتنقيب ، وانما في اعتقادنا أن هناك عدة مبررات للبحث .

---

[1]- مروه ،حسي (1985)،النزعات المادية ،ج1،بيروت:دار الفارابي ،ص17.

[2]- المصدر السابق نفسه.

أول هذه المبررات ، يقوم على تجسيد الهوية الوطنية بالانتماء إلى الوطن والتاريخ والجماعة الانسانية نفسها ، والحفاظ عليها في وجه التيارات الثقافية المعاصرة التي تهدد الشعوب النامية بابتلاعها أو تشويهها أو التعميم عليها ، أو افتقادها العناصر الحية فيها ، وبالتالي ابراز هذه الشعوب على أنها مجرد أعداد بشرية مجردة من العطاء والابداع والتفكير ، بهدف فرض ثقافة التقليد الأعمى والتلقي والاستهلاك عليها .

وثاني هذه المبررات ، يخص الاعتزاز القومي والثقة بالنفس ، لأن التاريخ والتراث هما اللذان يمنحان أي جماعة انسانية عراقتها وأصالتها ، وعمق تجربتها وغناها . وبالتالي اتساع مساحتها الزمانية والمكانية . هذا المبرر بحد ذاته له من الأهمية الكثير كونه يشكل عاملا رئيسيا في خلق الشعور الوطني ، بمعنى التمسك بالوطن والثقافة والحضارة والحفاظ عليها والتضحية من أجلها.

وثالث المبررات يتجسد بأن التراث بحد ذاته ثورة اقتصادية يمكن استغلالها واقحامها في مجالات وفعاليات معاصرة ، في الهندسة المعمارية والبناء والأثاث واللباس والسياحة والابداعات الأخرى . اضافة إلى كونه يشكل العنصر الأساسي لكثير من المهرجانات السياحية والفنية التي تساعد على اعادة الرونق الساحر للتراث ، واضفاء رونق التراث على الحاضر بأدوات الحاضر.

حيث أن معرفة التراث الفكري وأدواته العلمية لا يخضعان لواقعه التراثي فقط ولا لظروفه الزمنية والاجتماعية بحد ذاتها . بقدر خضوعها لاعتبارات الزمن الذي تنتج فيه هذه المعرفة وأدواتها . لأن النظرة إلى التراث تحمل في محتواها دائما نظرة مشتقة من اعتبارات الحاضر ، وكذلك ان النظرة إلى الحاضر تحمل بمحتواها نظرة مشتقة من اعتبارات الماضي ، حيث تشكل المعرفة جسرا متصل الحلقات من الماضي مرورا بالحاضر وصولا إلى المستقبل .

((ليس هناك علاقة واحدة بين الحاضر والتراث، مادام الحاضر نفسه ليس واحدا ، وما دام التراث كذلك)).[1]

ففي حديثنا عن التراث يجب أن نأخذ كثيرا من الاعتبارات بعين الاهتمام ، للأن التراث ليس مجرد مخلفات مادية ، أو أساليب حياتيه، أو تقاليد ، أو قوالب فنية و ملابس . انه أعمق من ذلك بكثير ، فهو روح الجماعة الانسانية والطاقة المحركة ، والدافع إلى الانطلاق والتطور والحفاظ على الهوية والانتماء إلى الوطن والتمسك به .

ان الاهتمام بالتراث يتعدى كونه مادة ترفيهية سياحية لدعم الاقتصاد من خلال مهرجانات موسمية سنوية تقام هنا وهناك . حيث يشكل التراث جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية أيضا . ويدخل في مساراتها و يغذيها بطاقة الاستمرارية والتواصل . كما أنه ليس بالضرورة الوقوف عند أشكاله القديمة وحرفية تقليدها ، فهناك دائما امكانات لتطوير والحذف والاضافة ، الا أن هذا لا يعني أن تكون حياتنا نمطا تراثيا . فمن المستحيل ارجاع عقارب الساعة إلى الوراء ، وانما ثمة امكانية معقولة لحياة معاصرة ملونة بالتراث .

وثمة اعتبار آخر يخص علاقة التراث المحلي الاقليمي لكل قطر عربي أو اسلامي ، حيث لا ينبغي بأي شكل من الأشكال أن يطغى التراث المحلي على التراث الشامل ، أي التراث العربي _ الاسلامي ، حيث يفترض أن يكون هناك توازن بينهما . لأن التركيز على العناصر المحلية الاقليمية في التراث يمكن أن تحمل معها مخاطر التقوقع الاقليمي . ويفترض بنا أننا نسعى من خلال التراث أن نضيف عاملا آخر موحدا لا مفرقا . حيث أن احياء التراث والحفاظ عليه ، وايجاد مكان له ومؤسسات في الحاضر ، بحاجة لدراسة وتخطيط واعداد طواقم ادارية وفنية. وأهم من ذلك تخصيص ميزانيات له . والا لكان كل مجهود في الصدد مجرد حرث في البحر .

[1]-المصدر السابق،ص23.

وهنا في هذه النقطة بالتحديد يبرز دور الذات الجمعية في التراث، هذا الدور الذي غاب عن مسرح التراث لفترة طويلة ، مؤديا ذلك إلى البحث عنه بشكل فردي ، أو على أيدي جماعات متناثرة بل متنافرة . ولكن لماذا يستهوينا موضوع البحث عن الذات ، هل لأنها تشكل عنصرا أساسيا في هذا التراث ؟ أم لأنها تلعب دورا كبيرا في اكتشاف العلاقة بين حاضر التراث وماضيه ؟ لتشكل صلة الوصل بينهما .

بعد اتباع منهج علمي للإجابة على الأسئلة ، تظهر البداية في العمل لا بالكلام . لأن الذات تظهر وتتكشف من خلال ازدهار العمل الانتاجي الابداعي ، العمل الذي يعبر عن حاجة المجتمع وهمومه ومشكلاته وطموحاته وتحدياته عالميا ومحليا ، ليؤدي بذلك إلى خلق مجتمع مشترك من خلال العمل علة=ى تنمية وتحديث حركة المجتمع ، وتحديد الداء والدواء المناسب للخروج من حالة التشتت والوصول إلى الاتحاد ، عن طريق تحديد مسار الاتجاه في جميع مناحي حياة المجتمع ، لتغيير البنية الاجتماعية كاها في ، الاقتصاد والسياسة والتعليم والأخلاق والقيم ، مع الاقتران بحركة تجديد لعملية التراث ، الا أن التجديد لا يعني قطع الصلة معه أو تجديده بشكل كامل ، انما بما البِدي إلى الغاء العلاقة بالماضي . لكن بما بِدي إلى دراسة التراث واحيائه بما يوافق متطلبات الحاضر ، لتأكيد وحدة التاريخ على امتداد الزمن بصورة تمنح المجتمع الكبرياء ، ويبرز بذلك دور الذات الجمعي في بناء الحضارة التي ستوصلنا إلى ركب التقدم عبر الصلة الوثيقة بين الحاضر العربي وماضيه .

فالتراث واقع انساني اجتماعي لأن نفيه يعني نفي لوجود الانسان من حيث أنه وجود واع بحكم تكوينه البيولوجي وتطوره ، وهو واقع اجتماعي ، لأنه رهن بوجود المجتمع ، وتعبير عن الوجود الاجتماعي بتناقضاته وصراعاته . وهو تاريخي ، لأنه حركة متصلة تعبر عن حركة المجتمع المتبدلة والمتجددة ، هو ظاهرة اجتماعية يتعين من خلالها فهم أسباب نشوء الجديد وعلاقاته وأسباب غياب عناصر وبروز أخرى ، فهو كحركة النهر ماؤه متصل ومتجدد دوما، يحمل ما يحمل من منابعه، الا أن الاضافات الجديدة تشكل حياته وتغني مصادر تغذيته وتزيدها ثراء .

حيث أن التراث لا يعني القديم وحده ، بل هو حركة الصيرورة المتجددة التي تشمل الجديد المستحدث ، مع عدم اغفال للتاريخ القديم . حيث يشكل حركة انسانية اجتماعية بين المجتمع والواقع المتجدد . فعندما يكون المجتمع بصدد عملية تحول ونهوض ، فان التساؤل بشأن التراث الثقافي يكون أمرا ضروريا ، كونه يشكل وسيلة من وسائل المجتمع ، لمراجعة أدواته المعرفية . وهذا يؤدي إلى التطور والتقدم واللحاق بركب الحضارة السائر.

((وهو حافز لحوار خصب توفر هدف المتطلبات ويراجع المجتمع آنئذ رصيده الثقافي ، أين أداته في التعامل مع الواقع في ضوء متطلبات هذا الهدف ليجري ما يجري من تعديل وملاءمة في صورة تأويل ابداعي في اتساق مع الجديد من المعارف ارتقاء بالوعي الانساني أو الثقافي للمجتمع))[4].[1]

فقضية التراث لا توضع موضع بحث وتساؤل ، الا في مجتمع يحوي كل جديد ، ليرى من الابداع حركة تقدم وصيرورة تصل به وتوصله إلى شواطئ العلم والمعرفة المتجددة على الدوام. وقضية التراث الفكري يضع أمامنا حقيقة مهمة جدا ، يجب أن نفهمها جيدا ونفهم حيثياتها ، وأسلوب هذه الحقيقة ، لأن هذه الحقيقة (المعرفة العلمية) وأدواتها لا تخضعان للواقع بحد ذاته ، ولا للظروف التاريخية فقط ، أو الزمنية والاجتماعية التي مر بها وحسب ، وانما يخضعان لاعتبارات الزمن الذي ينتج فيه هذا التراث ، وتساعد على تطويره وتقدمه ، بتقديم أسلوب الحقيقة العلمية الموضوعية القابلة للتبدل مع متطلبات الحاضر الذي وجد فيه. فالتراث ليس حكرا على الماضي ، ولا على من أنتجه

[1]- جلال ،شوقي(د.ت) ،التراث التاريخي،د.م،ص163.

وأوجده ، وانما هو تراث كل مرحلة زمنية بعد قولبته ليناسب العصر الذي حل به ووصل اليه ، ويساهم في تطويره وتقدمه .

حيث أن العلاقة بين الماضي والحاضر ليست واحدة ، ولنما علاقة متعددة الجوانب ، هي علاقة اجتماعية واقتصادية ومادية وعلمية فكرية ، وكذلك سياسية وثقافية، لأن التراث ليس فقط ما وصلنا من عمران ، وانما هو علاقات وعادات وتقاليد وثقافات ، يجب أن تتداول في الحاضر بما يخدم الحاضر ، دون الغاء لذات الماضي. الذي يجب أن يتحلى بروح النقد البناء ، وبالموضوعية لتقبل كل تغيير يصيبه ، أو يقوم دارسوا هذا التراث بإضافته أو تغييره، لأن الحاضر ومتطلباته يختلف عن الماضي ومتطلباته ، ولكل عصر خصوصيات تميزه عن غيره . فالعلاقة بين الحاضر والماضي ليست علاقة أخذ وحسب كذلك الأمر وانما علاقة تطوير واغناء للمعلومات بما يناسب العصر الذي وصلت اليه المعرفة العلمية ووصل له التراث .

صحيح أن تراث الأمة أثمن ما تملك ، لأنه بمثابة روحها ، ومصدر قوتها الرئيسية ، وهو محرك جماهيرها الذي يدفعها للتحول من الكم إلى الكيف، ويفتح لها طريق العبور من الأصالة إلى المعاصرة .

وانطلاقا من فعل التراث في الأمة سواء في الماضي أو الحاضر ، واستمرار هذا الفعل، ما زال التراث يعيش بنصوصه في سلوك الناس ، ينشئ الحركة من خلال الثبات ، ويحدث التغير من خلال التواصل ، فيتراءى الحاضر في الماضي ، ويعيض الماضي في الحاضر ، وتنطلق قوى التاريخ ، وتتحرك الشعوب لأن تراث القديم ما زال حيا في وجدان الشعيب، لذلك يجب أن يتحلى التراث بروح التجديد لتقديم حلول مناسبة للحاضر ليساعده بالتقدم ، لنغدو العلاقة بينهما علاقة تفاعل متبادل ، علاقة قائمة على أساس موضوعي تحوي روح النقد البناء الذي يساعد على حل مشكلات الماضي المستعصية وتوظيفها في تحقيق تطور الحاضر دون اهمال روح العصر الذي وجدت فيه هذه المشكلات وسبب تواجدها .

نحن نريد حماية الماضي _ التراث _ لكن في نفس الوقت نريد تطويره من خلال التواصل بينه وبين الماضي الدال عليه ، وليس من خلال الانقطاع ، حيث أن مهمة التجديد في التراث لا تعني القضاء على التراث القديم والغائه ، وانما حل طلاسم ومشكلات الماضي مرة واحدة وإلى الأبد ، وفك أسرار الماضي حتى لا تعود إلى الظهور ثانية ، وتبقى في القاع ، والقضاء على معوقات التحرر وجذور التخلف الماثلة بالخرافة والأسطورة ، والتحرر من كل أنواع السلطة ، وتفعيل سلطان العقل المتسلح بالحقيقة الموضوعية . لأن ((الحقيقة في البحث التراثي ، كما في البحث العلمي عموما ، هي كذلك حقيقة ،ليس لأنها نافعة ، وانما هي ، على العكس من ذلك ، نافعة ، لأنها حقيقة)).[1]

حيث أن التراث ، هو كل حدث أو أثر أو انتاج انساني ، كان في الماضي وشكل جزءا منه، شكل التاريخ مع امتداده إلى الحاضر ، وعاد ليحيا في الحاضر ويضفي عليه بعض صفاته التي تناسب هذا الحاضر وتساهم في تقدمه ، من خلال التفاعل بين مقومات هذا الماضي ومقومات و حاجات الحاضر . حيث أن التراث العربي _ الاسلامي بأبعاده السياسية والمادية والاقتصادية والاجتماعية ،وكذلك الثقافية ، يتمتع بوجه موضوعي مستقل عن حقيقة ما يريد الباحث اظهاره في هذا التراث . لأن مهمة الباحث أن يبحث بطريقة موضوعية ، وأن يتسلح بالرؤية العلمية المنهجية كون التراث يشكل لحظه مهمة جدا في الوقت الحاضر لتطويره نحو الأفضل . فلا يجب على الباحث الذي بعد عنصرا من عناصر المجتمع الهامة ، وفردا من أفراده ، أن يضع آفاق القادم وكأنه انسحاب الماضي إلى الزمن الجديد ، أو ليكون التاريخ المكرر مجرد نظام فكري مصدوم بحركة الحدث الحالي . وليشكل كذلك اللون الذي لم

[1]- تيزيني،طيب(1978)،من التراث إلى الثورة ،ج1،بيروت :دار ابن خلدون ،ط2،ص6.

يستطع ايجاد منفذ له إلى واقع الحركة الراهنة ، ليبدو مجرد غطاء من القيم تزين ضياع البحث عن هوية في وسط تناقض التفكير بين الماضي والحاضر والمستقبل .

حيث يتوجب على الباحث أن يشكل صلة الوصل بين الماضي والحاضر ، عن طريق بحثه عن الحلقة المفقودة التي يحاول بعض الأشخاص تغييبها عن ساحة هذه العلاقة ، ليبقى هناك هوة فاصلة بينهما ، وليبدوا التراث مجرد حدث من الماضي الذي انتهى وغاب ، ولا علاقة له بحاضر الأمة ومستقبلها . عن طريق ربط ماضي الفكر العربي _ الاسلامي المشرف المشرق بحاضره ، حيث سيضفي عليه رونقا وسحرا يساعده على تخطي الأزمات والأخطار لإيجاد مكان مناسب له في الساحة الثقافية العالمية ليبرز دور الذات العربية في تطوير المجتمعات ، وتقدم العلوم ، وتقديم الحلول لمشاكل لم تحل في الماضي . لذلك يجب على المجتمع العربي _ الاسلامي ربط دور الذات بقوة الارادة ، لأن قوة الارادة تشكل جوهرا ثمينا ، كلما تمتعت به الدول العربية _ الاسلامية ، كلما تحقق لها النمو والتطور ، فبقوة الارادة والصمود تثبت المجتمعات العربية وجودها بربطها ماضيها بحاضرها ، فمن تمتع بإرادة قوية منذ القدم لن يغيب أبدا بالرغم من كل المحاولات الهادفة لتغييبه واضعافه .

هنا في هذه النقطة بالذات يبرز دور العقل ، بإحكام عمله نحو الارتقاء بالمجتمع العربي _ الاسلامي لتحقيق التقدم والاستمرار نحو اعادة الحقوق لأصحابها ، عن طريق النظر إلى روح العصر وحاجاته ، سواء في الحاضر العربي ، أم في ماضيه ، ليتبن بأن هناك علاقة جدلية بين العقل والواقع لا يمكن تخطيها ، لأن العقل يحاول تحديد الواقع ليعيد تشكيله من جديد بما يناسب حاجات العصر ، فالعقل هو السلاح الفعال في اعادة الأمور إلى نصابها ، وتصحيح خارطة الطريق التي من خلالها سيتمكن المجتمع من التحرر من كل الخرافات البالية التي علقت في أذهان الشعوب العربية بأنها شعوب متخلفة لا يسعها سوى الاستسلام للوضع الذي وجدت فيه ، ويعيد العقل العربي للمجتمع العربي _ الاسلامي بذاكرته إلى ماضيه المشرف المشرق ، وليتخذ منه عنوانا لحاضره الذي يجب أن يكون أكثر اشراقا ، ولمعانا من ماضيه الذي أثبت أنه أهل لتحمل مسؤولية الخيار ، وقوة الارادة بإثبات الذات .

يجب قراءة الواقع بكل ما يحتويه ، بقراءة ما بين السطور ، لفهم متطلبات الحاضر ، بعدم غض الطرف عن كل نقطة موجودة فيه ، فمن المحتمل أن تشكل كل نقطة وكل حرف نقطة الفصل في تاريخ شعي مناضل . حيث يجب أن تحكم القفلة في الفحص الدقيق لمتطلبات الحاضر وتقديم العون لتخطي الأزمات التي تمر بها المجتمعات العربية _ الاسلامية ، ولتأكيد حقيقة مهمة جدا أن التراث ليس من صنع فئة اجتماعية محددة ، ولا طبقة واحدة ، ولا قوة واحدة . وانما هو جهد وتعب قدمته جميع القوى ، هو جهد معرفي وتعب أيام وليالي ، اشتركت فيه جميع فئات المجتمع .

يقول مروه في ذلك : ((على قدر ما يختلف (حاضر) كل موقع طبقي عن (حاضر) الموقع الآخر ، وعلى قدر ما تختلف (علاقة) كل منهما بالماضي عن (علاقة) الآخر به ، يختلف (التراث) نفسه كذلك عند كل منهما)).[1]

لينتج من كلام مروه بأن التراث متعدد بتعدد القوى المشاركة في وضعه ، وليرسم اطار عملية معرفية قامت بها جميع القوى والفئات في هذا المجتمع ، ليكون التراث على العكس ، شاملا لعمل كل هذه الفئات والقوى ، فبإقحامه الايديولوجيا في معرفة ودراسة التراث يكون ابتعد كثيرا عن الموضوعية العلمية وذلك بقوله : ((وبالصورة نفسها يرتسم التراث أيضا في المنظور الايديولوجي لكل منهما . هكذا ينكشف أن التراث ليس واحدا ....ان التراث

[1]- مروه،حسين (1985)،النزعات المادية ،ج1،بيروت:دار الفارابي ،ص24.

يتعدد ، لأنه منظور اليه من الحاضر ، والحاضر _كما رأينا _ متعدد . ونحن نعني هنا _ بالطبع _ تعدد المنظور الايديولوجي _ الطبقي للتراث ، رغم أن التراث ، كواقع تاريخي ، واحد)).[1]

عند تحليلنا لكلام مروه السابق ، نلاحظ تناقضا كبيرا ، فكيف يكون التراث متعدد ايديولوجيا ، وواحد تاريخيا ، ألا يفقد هذا الشيء التراث قيمته المعرفية التي يجب أن تبرز في كل دراسة للتراث ، لأن التراث في النهاية نتاج عملية معرفية شارك ويشارك بها جميع أفراد المجتمع ،بكافة قواه وعناصره وفئاته ، لذلك يجب أن تكون النظرة إلى التراث عقلانية ، تربط الجذور الحضارية المعرفية بالجذور التاريخية ، معبرة عن الفترة الزمنية التي وجدت فيها عملية المعرفة العلمية والثقافية ، والتي عبرت عن نفسها بقوة الارادة ، وروح الصمود ، مع ادراكنا أن لكل عملية معرفية ظروفها التاريخية الحضارية التي أدت لإيجادها ، حيث أن لكل عصر معرفته الزمانية المكانية ، التي تعبر عن ذات هذا العصر وروحه .

فالمجتمع العربي _ الاسلامي غني بنتاجه الفكري التراثي ، وظروفه التاريخية التي مر بها تسطر تراثا لن يزول على مر العصور ، تراثه غني بالمعلومات ، ذو جذور قوية تضرب عميقا متغلغلة في باطن المعرفة ، بحيث لا يتمكن أحد من اجتثاثها مهما حاول ذلك .

الخاتمة

يعتبر سؤال التراث في أسئلة الوعي الحضاري ، سؤال الصلة بين ماضي الأمة وحاضرها ، وهو سؤال تواصل لا فصل فيه ، ولا اتصال ولا انقطاع معه ، سؤال منهجي في أشد تجليات قضايا المنهج وما قبل المنهج .

حيث كانت اشكالية التراث ، النظرة اليه ، ومناهج وأدوات التعامل معه وحدود الاستفادة منه ، وقابليات النهل من معينه وروافده أحد أهم إشكاليات الوعي الحضاري على مدار عقود من الصراع بين الحضارتين الاسلامية والغربية ، وهما يعبران عن حضارة في طور الأفول ، وحضارة في مرحلة التوغل ، ومحاولة الغاء أو اذابة ما قبلها من حضارات تواريخ شعوب وأمم . اذ يعد التراث بعدا من أبعاد الوجود الانساني، وهو أداة من أدوات تحرير الانسان ، التي من الممكن أن تشكل عائقا في الوقت نفسه ، عائق يحول دون رقي الانسان وارتقائه ، ومن يتأمل الدلالة المعجمية لكلمة تراث ، يجدها مشتقة من فعل ورث ، ومرتبطة دلاليا بالإرث والميراث والتركة والحسب ، وما يتركه الرجل الميت ، ويخلفه لأولاده.

أما التراث في أبسط معانيه فهو كل ما خلفه الأجداد للأحفاد على صعيد الآداب والمعارف والفنون والعلوم ، لذا يعد التراث بمثابة الذاكرة الثقافية والحضارية والروحية والدينية التي تبقى للأبناء والأحفاد من أجدادهم وآبائهم ، وهو ما يشكل الوعي الجمعي والذاكرة التاريخية لأمة من الأمم .

ان أي جهد ابداعي في قراءة التراث يحتاج الى نموذج متميز في العمارة المعرفية يقوم على ثلاثة أعمدة هي :

1: قدرة خارقة على الترتيب والتنسيق واشتقاق المفاهيم وتوليدها بلغة قوية وذات نفحة تراثية .

2:آلة منطقية متماسكة في بناء الاستدلالات واستخلاص النتائج .

3: وعدة معرفية قوية تجمع بين النصوص التراثية وما استجد في الفكر الغربي مادة ومنهجا .

وبدون ذلك لا يمكن أن يكون التراث أحد أهم عوامل صنع النهضة وبناء الحضارة ، فلا مستقبل مشرق دون حاضر يتميز بالجد والاجتهاد ، ولا وجود لحاضر حقيقي الا يستند على ماض عريق.

---

[1]- **المصدر السابق نفسه .**

لقد ظل التراث سؤال من أهم أسئلة الوعي الحضاري ، لأنه يختزل بحمولته المعرفية كل الأسئلة الثقافية والحضارية المتعلقة بكيان الأمة سواء في بعده الزماني ، حينما يطرح قضية الأنا الجماعية في ماضيها ، أو حينما يطرح الأنا المعاصرة في علاقتها بالعالم من حولها . انه سؤال مركب من حيث الزمان ، ومن حيث المكان ، ومن حيث القضايا التي يناقشها ويطرحها ، وتظل الاجابة عليه هي البداية المنهجية للتعامل مع اشكالية الواقع المعاصر .

المصادر والمراجع

1 تونبي ،أرنولد(د.ت)، محاضرات أرنولد تونبي ،ت:فؤاد زكريا ،د.م.

2 تيزيني،طيب(1978)،من التراث إلى الثورة ،ج1،بيروت :دار ابن خلدون ،ط2.

3 جلال ،شوقي(د.ت) ،التراث التاريخي،د.ن : د.م .

4 حنفي ،حسن (1981)، التراث والتجديد، بيروت : دار التنوير .

5 مروه ، حسين (1985)، النزعات المادية ، ج1، بيروت: دار الفارابي .

6 مروه حسين (1985)،تراثنا كيف نعرفه ،ط1،بيروت ،لبنان :مؤسسة الابحاث العربية .

7 النفيسي،فهد عبدالله (1986)،التراث وتحديات العصر ، بيروت :الربيعيات للنشر والتوزيع ،ط1.